الباقلاني وإعجاز القرآن

أ.د/ محمد محمد أبو موسى (*)

بعدما فرغ الباقلاني من ذكر الوجوه العشرة التي تحدثنا عنها وهي مما شاركه في أكثرها الذين سبقوه من أهل العلم، وإن كان استخراجها من الكتاب العزيز مما تناله عقول العلماء الذين هم في طبقة الباقلاني والذين هم دونه لقوة ظهورها..

وهذه الوجوه وغيرها من وجوه الإعجاز مما حفظ الله بها كتابه من التغيير والتبديل الذي داخل كتب الله الأخرى؛ لأن الله سبحانه لم يتعهد بحفظها وإنما وكل حفظها إلى الأحبار والرهبان الذين حملوها واستُحفظوا عليها ولم تكن معجزة فيحفظها الإعجاز من التغيير والتبديل لأنها كتب نَسخ لاحقُها سابقَها وهذا بخلاف القرآن لأنه الكتاب الباقي ما بقي التكليف فنَسَخ ولم يُنسَخ وهيمن على غيره ولم يهيمن عليه غيرُه، وكان إعجازه البلاغي حصنًا حصينًا له؛ لأن الإعجاز يعني أنه ليس من جنس كلام الناس، فإذا دخلت فيه كلمة أو حرف أو حركة نادى إعجازه عليها وأدركها كل قارئ عالمًا كان أو غير عالم. وكما أن الجملة منه إذا دخلت في كلام آدمي ظهرت وبانت وبهرت، كذلك إذا دخلت جملة، أو كلمة عليه نفتها ورفضتها قوة بيانه؛ ولهذا بقي فينا كيوم نزل، وهذا وحده إعجازٌ، ثم إنه لم يبق فينا كيوم نزل بألفاظه وتراكيبه ومعانيه فقط، وإنما بقي فينا كيوم نزل بتلاوته وترتيله وغُنَّته ومداته كما سمعه رسول الله ﷺ من جبريل عليه السلام وكما سمعته الأمة من الذي أنزله الله عليه، صلوات الله وسلامه عليه. وهذا غريب وليس على وجه الأرض كتاب بقي كلَّ هذا الزمن محفوظًا في لفظه ورصفه ومعناه وصوته وجرسه إلا هذا الكتاب، مع ملاحظة أن الذين لم يؤمنوا به يوجهون مطاعنهم إلى الدين كله وإلى كتابه خصوصًا وألَّف كرامُ علمائنا كتبًا عريقة في ردِّ مطاعن أهل الإلحاد، ومع ذلك لم ينالوا تغيير حرف واحد ولا حركة واحدة، وإذا أراد الله شيئًا هيَّأ له أسبابه، وقد أراد سبحانه حفظ هذا الكتاب وقال سبحانه:

(*) عضو هيئة كبار العلماء وأستاذ البلاغة بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

وكان إعجازه من جند الله الحامية له والحافظة له، وقد أتم الله علينا النعمة بكل ذلك.

وقد أمرنا ربنا بالتدبر في كتابه، والتدبر معناه المراجعة وإعمال العقل، والاجتهاد في استخراج مراد الحق من كتابه الذي أنزل، وأُولى درجات التدبر في آية الحجر:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

تجدها جملتين جملة أفادت أنه سبحانه بعظمته وجلاله أنزله، وجملة أفادت بأنه سبحانه بعظمته وجلاله تكفل بحفظه، والجملة الأولى فيها مؤكدات:

أولها: تأكيد الضمير المتصل وضمير منفصل (إنا نحن) والضمير المتصل هو ضمير العظمة والجلال وتأكيده هو تأكيد العظمة والجلال، وإذا كان الذي أنزله سبحانه هو الموصوف بكل كمال والمنزَّه عن كل نقص فمن الواجب وحُسنِ الأدب أن تتلقاه قلوبكم بكل ما تستطيع من تعظيم وإجلال، ثم كلمة (إنَّ) التي هي أُمُّ باب التوكيد والذي افتتحت بها الجملة وحين يؤكد الذي لا شك في خبره سبحانه يكون تأكيده ليس لإزالة شك ولا ريب وإنما للإشارة إلى أن المعنى الذي أكده له عند الله سبحانه شأن أي شأن ولا شأن أعظم من نزول الكتاب الذي يخرج الناس -كل الناس- من الظلمات -كل الظلمات- إلى النور -كل النور- ثم إنه سبحانه سمى القرآن ذكرًا، والذكر ما تدور به الألسنة وتواطئه القلوب فأشار هذا إلى أن المحفوظ هو ما تدور به الألسنة من ترتيل وتلاوة ومداته وغناته، والصورة التي تلاه بها جبريل عليه السلام على سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه وتناقلتها الأمة وحفظتها وحافظت عليها. ثم إن كلمة الذكر تعني الذاكرين الذين هم أهل القرآن، والتعهد بحفظ الذكر تعهد بحفظ الذاكرين وأن القرآن وأهله في جنب الله وكنفه وحفظه قائمون على ذلك ما بقي التكليف، ثم إن الذكر إعداد أفراد الأمة إلى عمل الصالحات، والمقصود بعمل الصالحات في الذكر الحكيم كلُّ ما تصلح به حياتكم في الدنيا والآخرة، فالبر من الصالحات، وإتقان العمل من الصالحات والتفوق العلمي من الصالحات والتفوق الصناعي من الصالحات والتفوق العسكري من الصالحات، وكل ما يحفظكم ويحفظ أرضكم ودماءكم وأموالكم وأعراضكم من الصالحات، وما دمتم ذاكرين بهذا المعنى فأنتم من جند الله وقد قال سبحانه:

﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

(الصافات: ١٧٣)

هذا قليل من التدبر في الجملة الأولى، وقليل من التدبر في الجملة الثانية:

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(يوسف: ١٢)

نجد الجملة الكريمة والتي تعدنا بوعد هو أكرم وعد من وعود الله لنا، وأكرم بشارة يبشرنا

الله بها وهي حفظ كتابه فينا وحفظنا بكتابه تراها مؤكدة بجملة مؤكدات.. الأولى: كلمة (إنَّا) والثاني: ذكر ضمير العظمة، والثالث: اسمية الخبر ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ ومعناه أن حفظ الله له حفظ ثابت دائم لا يزول ولا يحول، ثم اللام الداخلة على الخبر وقد صدق وعده سبحانه وبقي الكتابُ فينا وبقينا به لم تتغير فيه حركة ولم تسقط منه حركة ولم تتسلل إليه حركة، وأكتفي بهذا، وعليك أن تراجع أنت وأن تتدبر أنت وستجد أنني تركت أشياء ظاهرة لك لتقع عليها بنفسك، وخير العلم ما هُديت أنت إليه ولم تسمعه من غيرك.

ثم إن الباقلاني بعدما ذكر هذه الوجوه العشرة للإعجاز والتي لم تجتمع في أي كتاب إلا في كتاب الباقلاني والتي أضاء بها هذه الجوانب الجليلة في البلاغة القرآنية؛ أقول: بعدما ذكر هذه الوجوه بدأ يحدِّث عن البلاغة القرآنية حديثًا جديدًا بعضه زيادة إيضاح لما أجمل وبعضه لم يطرق أحدٌ بابه قبل أبي الطيب.

وقد علَّمَنا علماؤنا من قرأنا لهم ومن سمعنا منهم ضرورة أن نقف ونراجع وندقق في كلام العالم حين ينتقل من موضوع إلى موضوع؛ لأن هذه المفاصل أحيانًا تكون فيها إشارات تحتاج إلى مزيد بيان وأن العالم الذي في طبقة الباقلاني حين يطوي صفحة وينشر أخرى يجري قلمه بكلمات تشير إلى قضية من قضاياه ربما كان فيها غموض يحتاج إلى بيان ولا سبيل إلى بيان هذا الغموض إلا ما تجري به أقلامهم مما لا يلتفت كثير من الدارسين إليه، وقضية الغموض الأولى في كتاب الباقلاني الذي هو من أوفى وأدق وأخصب كتبنا في الإعجاز ونقد البيان هي موقفه من قصيدتي (قفا نبك) لامرئ القيس، و(أهلًا بذلكم الخيال المقبل) لأبي عبادة البحتري، وإنما خص الباقلاني هذين الشاعرين لأن الإجماع يوشك أن ينعقد على أن امرأ القيس سيد شعراء الجاهلية وأن شعر الجاهلية ليس فوقه إلا كلام الله وكلام رسوله ﷺ ويكاد الإجماع ينعقد على أن أبا عبادة البحتري هو أول شاعر يأتي ويذكر بعد شعراء الجاهلية، ثم إن قصيدة (قفا نبك) لامرئ القيس هي سيدة شعره ولا ينازع في ذلك من له علم، وسئل البحتري عن أفضل شعره فقال:

أهلًا بذلكم الخيال المقبل
فَعَل الذي نهواه أو لم يفعل

وقد أصاب أبو الطيب في استخلاص واختيار هاتين القصيدتين وله حديث طيب يذكر فيه قدر الشاعرين ويذكر فيه تميز وتفوق شعرهما، ثم له كلام طيب جدًا في تحليل عناصر البيان وتحديد الجهات التي يتسلل منها الوهن للشعر وهو في دراسة عناصر البيان وذكر أوصافها التي بها تحسن وتروق، والتي بها تُستَهجن لم ينازعه أحد من علمائنا في هذا الباب ولو وضعتَ ما ذكره في تحليل عناصر البيان وكيف تتحقق فيه وله وجوه الاستحسان؛ أقول: لو وضعتَ كلامه في نقد الشعر والأدب بإزاء كلام قدامة

الـذي أفرد لذلـك كتابًا لوجدت فرقًـا كبيرًا بين كلامين وبين عالمين بالشعر ؛ لأن قدامة مع الإقرار بمكانته إذا وضع بإزاء هذا الشـيخ الأشـعري والـذي كتـب كتابًـا فـي الإعجاز وأدخـل كتابه في نقد الشـعر من باب فرعي ؛ أقـول : لن تجد لكلام قدامة إلا قيمة متواضعة جـدًا ، ومع كل هذا وأكثر منه لمَّا بدأ الشـيخ في تحليل ودراسة القصيدتين تحامل عليهما تحاملًا شـديدًا جدًا واستهجن ما لا يستهجن واسـتكره ما لا يسـتكره وجار وأسـقط أجلَّ قصيدتين في تراثنا الشعري ، وهذا من أغرب وأعجب مـا في هذا الكتاب ، وكلام الباقلاني في وصـف بلاغة القرآن والدلالـة قاطعة كما قال المرحوم محمود شاكر على قدرة متوهجة في تذوق البيان . ثم إن وقوفه عند الآيات التي وقـف عندهـا وتعليقاته الموجـزة على الذي وجده في بيانها يجعلنا نؤكد أنه لا خلاف في أنـه من طبقـة علماء الطبقـة الأولى في تذوق البيـان وأن الـذي كتبـه في الدراسـة النظرية في نقد الشـعر متلائم جدًا مع هذا الإحساس المتوهج الذي نـراه منه في الآيات التي يقف عندهـا ، وهذا عندي قاطع فـي أن ما كتبه في الدراسـة النظريـة هو ما اسـتخلصته حاسـته البيانيـة مـن الشـعر والرسـائل ، وكل ذلـك يجعل نقـده المتهافـت لهاتيـن القصيدتين أكثر غرابة .

وقد ذكر المرحوم محمود شاكر علةً لذلك وليـس عذرًا مـع ملاحظة أن محمودًا شـاكرًا يذكـر الباقلانـي مقترنًـا برجليـن لا أعـرف أعلم منهما بأسـرار البيان وهما الجاحظ قبل الباقلانـي وعبد القاهر بعـده ، ذكر المرحوم شـاكر أن الذيـن كانـوا فـي عصـر الباقلاني استفزوه لمَّا كانوا يوازنون الشعر بالقرآن وأن بعضهـم كان يغالي في جهله وضلاله ويفضل بعض الشـعر على بعض الآيـات ، والمرحوم محمود شاكر يُعلل هذا الموقف ولا يبرره .

ومما يقرب لنا سبب حدوث هذا الموقف الغريب من هاتيـن القصيدتين هو أن من أبرز وأظهر وجـوه الإعجاز عند الكافـة أن القرآن الكريم هو الكلام الوحيد الذي جرى كله على نسق بياني واحد فليس فيه مواضع يعلو فيها البيان ويعذب ويسـلس وينقاد ومواضع يفتر فيها ويهبط ويستكره ولا ينقاد ولم يخلُ بيانٌ مهمـا كانت منزلتـه ومنزلة قائلـه من التلون والعلو والنزول والسلاسة والتعثر ؛ لأن البيان الإنسـاني صادر عن النفس الإنسانية وأحوال القوة والضعف والنشـاط والفتـور تعتريها لا محالـة ، وهذا ظاهر في بيانهـا الصادر عنها ، وكان خلـو القرآن من هذه الأحوال دليلًا على أنه لم يصدر عنهـا ، وكان وروده عن الألوهية كمـا يقول الباقلاني هو السـبب في خلوه من كل هـذه الأحـوال الآدميـة وأن الله سـبحانه سهَّل سـبيله فلا تجد فيه وحشـيًا مستكرهًا ولا مبتـذلًا قريبًـا ، وتجـد معنـاه إلـى قلبك يسـابق لفظه إلى سمعك وهو مع ذلك ممتنع المطلب ، واسـتواء هذا النسق مع قرب معناه مـن القلب وقـرب لفظه من اللسـان وامتناع مطلبـه وكل ذلـك مطـرد فـي القـرآن وليس مطـردًا في الشـعر ، وقـد بـدأ الباقلاني ينظر في هاتين القصيدتين ليبين أن اسـتواء نسـق

القرآن وتسهيل سبيله وبعده عن المستكره والمستنكر والمبتذل واطراد ذلك فيه لا يوجد في الشعر وكأنه بدأ النظر ليبرز هذا الجانب الذي هو جانب التلون والاختلاف في الشعر فلم يكن درسه للقصيدتين درس تحليل وبيان ونقد وإنما كان نظرًا يستهدف الكشف عن هذه الحالة التي هي من أحوال النفس والتي لا يخلو منها بيان إنساني مهما كانت منزلته، وهذا هو السياق الذي وضع الباقلاني فيه دراسة القصيدتين. وأكرر أنني لا أبرر تحامله على هاتين الغُرتين وإنما أحاول أن ألتمس الذي دفعه إلى هذا الذي كان منه.. وربما يترجح عندنا هذا إذا قرأنا وصفه لتفوق امرئ القيس وتفوق شعره، ومما قاله في ذلك: وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس، ولا ترتاب في براعته، ولا تتوقف في فصاحته، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أمورًا اتُّبع فيها من ذكر الديار والوقوف عليها إلى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه والمليح الذي نجد في شعره والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله والوجوه التي ينقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعُقَد ومتانة ورِقّةٍ إلى آخر ما قال، فإذا راجعتَ دراسته لسيدة شعر امرئ القيس فلن تجد فيها بيتًا سليمًا مما يعاب، وهذا يؤكد أنه نظر في القصيدة ليس بالعين التي تبحث عن خيرها وشرها وجيدها ورديئها وإنما بالعين التي تبحث فيها مع تفوقها وتقدمها على الاختلال الذي لا تجد منه شيئًا في الذي بين الدفتين، وليس المقصود بيان إعجاز القرآن لخلوه من العيوب؛ لأن السلامة من العيب ليست من الإعجاز في شيء وإنما المقصود بيان استحالة وروده من النفس الإنسانية؛ لأنه ليس في بيانها كله بيان يخلو مما يعاب به البيان؛ لأن الفتور والاختلال من طبع هذه النفس، وكلما قرأتُ في كتب الإعجاز كلامًا يبين خلو القرآن من العيوب والمآخذ لا أفهم منه أن المراد بيان الإعجاز من جهة الخلو من العيب وإنما المراد تأكيد أن مصدره ليست هي النفس الإنسانية التي هي نفس ابن آدم وكل ابن آدم خطاء، فإذا رأيتَ شيئًا لا خطأ فيه فاعلم أنه ليس من ابن آدم.. الكل يعلم أن الإعجاز هو التفوق على الذي بلغ نهاية التفوق وأن هذا الذي بلغ نهاية التفوق من كلام البشر لا يسلم من الفتور والاختلال؛ لأنه لا يسلم من الفتور والاختلال ما دام قد خرج من جنس البشر. وقد كتبتُ هذا لأني قرأت لبعض من يؤخذ عنهم العلم أن الذين يتكلمون في عيوب الشعر يسيئون إلى القرآن؛ لأن كلامهم هذا يوهم المبتدئين من طلاب علم الإعجاز أن تفوق القرآن كان بسبب عيوب الشعر، وأن الحطَّ من الشعر لبيان الفرق بين القرآن والشعر، وهذا مما يستعاذ بالله منه.. هذا والله أعلم.